أقصوصة مصرية :

الدكان

للأستاذ عبد القادر المازنى

وقفت « جليلة » حائرة لا تدرى ماذا تصنع ، فقد انغرزت إحدى العجلتين الخلفيتين فى الرمل وأبت أن تخرج منه وعجز المحرك عن جذبها ، بل كانت العجلة تزداد غوصاً كلما حاولت نزعها ، وكانت الشمس قد مالت إلى المغيب ولم يبد أحد فى الأفق ، وكان « الكشك » الذى وقفت عنده منذ لحظة تشرب « الكازوزة » يبعد مسافة كيلو ونصف أو اثنين ، فليتها ما جاوزته إلى هذا المكان القفر . . . ولكنها أرادت أن ترى الطيارة الشراعية من مكان قريب ، والأرض بعد « الكشك » غير ممهدة ، ولكن عناء السير فيها محتمل ولا خوف من الغوص ، وقد طوفت من قبل فى أرجاء هذا الفضاء الرحيب فهى تعرف صلابة الأرض ولا تخشى رخاوتها . غير أن الحظ خانها فى هذه المرة فما كادت تقف بالسيارة وتنأى عنها قليلاً ثم ترجع حتى ألفت العجلة قد غاب نصفها فى الرمال الخائنة ، وكان تلاميذ الطيران الشراعى بعيدين عنها بعد « الكشك » ؛ فهل تترك السيارة وتعود أدراجها إلى الكشك لتلتمس من صاحبه المعونة وتسأله أن يدعو إلى نجدتها بعض خفرائه ؟ ؟ لم يبق من هذا مفر على ما يظهر وإلا صار خطبها أدهى بعد الغروب . وصح عزمها على ذلك فأقبلت على السيارة تريد أن تأخذ منها حقيبتها وقبعتها وإذا بصوت يقول لها :

« اسمحى لى . . »

فالتفتت مذعورة فما سمعت وقع قدميه وهو مقبل عليها ، ولا رأته وإن كانت قد دارت بعينيها فى المكان ونفضته قبل أن تنوى الرجوع إلى « الكشك » . ولم يسألها الرجل شيئاً ولم ينظر إليها بل انطرح على الرمل بثيابه الأنيقة بعد أن ألقى طربوشه فى السيارة وراح يجرف الرمل بيديه من خلف العجلة وقدامها . ولما فرغ من ذلك ووسع للعجلة نهض ومشى مطرقاً ينظر إلى الأرض كأنما يبحث عن شىء ، ثم انحنى وتناول حجراً كبيراً ولوحاً من « الصاج » وعاد بهما فوضع الحجر خلف العجلة واللوح امامها وتحتها ليكون دورانها عليه لا على الرمل ، ثم نهض مرة أخرى وقال :

« أظن هذا يكفى . . فلنجرب على كل حال »

فقالت : « أشكرك . . لا أدرى ماذا كنت أصنع لو لم تجدنى ؟ »

فأشار بيده وقال : « أجل الشكر حتى أستحقه . . إن العجلة المسكينة لا تزال غائصة فلننقذها أولاً »

ومضى إلى آخر السيارة وقال : « أدرى

المحرك وسيرى بها وسأدفعها أنا من الخلف »

ففعلت وخرجت السيارة ثم وقفت على مسافة أمتار ونزلت منها متهللة الوجه فصاح بها : « لماذا وقفت ؟ . هل حدث شيء ؟ »

قالت : « لا ... إنما جئت لأشكرك ... »

ففرك يديه ومد عنقه إليها وقال : « آه صحيح . صار الشكر الآن واجباً . أليس كذلك ؟ . »

فضحكت وسرها منه أنه لا يبدو عليه أنه يريد شكراً وأنه كان ينتظر منها أن تمضي عنه بلا كلام

وقالت وهي تبتسم له — في عينيه — : « ألا تريد أن أشكرك ؟ »

فقال وهو ينفض الرمل عن ثيابه : « كلا ... إنه دين قديم أؤديه ... بعضه على الأقل »

ففاضت الابتسامة وقالت مستغربة : « دين ؟ . لي أنا ؟ . ولكني لا أذكر ... أني أعرفك ... لا مؤاخذة ! »

قال : « صدقيني حين أقول لك إنه يسرني أن أراك ناسية ... إنها ذكرى خليقة ألا تثير في نفسك إلا الامتعاض والنفور بل المقت ... فالحمد لله »

فدنت منه مقدار خطوة وقالت : « ولكن أرجو أن تريحني ... هل تعرفني ؟ »

قال : « أعرفك ... أظن ذلك ... وإن كنت لا أكتمك أني نسيت اسمك ... انتظري (ورفع كفه الكبيرة المليئة الى جبينه) اسمك ياسمي ... غريب ! ! تبقى الصورة كل هذه الأعوام ويذهب الاسم ... أوه جما ... جميلة ... وجدته ! وجدته ! . جليلة ... أليس كذلك ؟ »

فصاحت : « نعم . نعم . ولكني آسفة لأني لا أذكرك أبداً ... لا صورتك ولا اسمك »

فقال بابتسام : « أنهما جديران منك بالنسيان »

فألحت عليه أن يذكر اسمه فقال : « هذا لغز سأؤول لك حله وأنت عائدة »

فابتسمت وقالت : « ألا تخشى أن أشغل به عن الطريق وما فيه فتحدث لي حادثة ؟ »

فقال : « صحيح . صحيح . إذن لم يبق مفر من التضحية ... سأخسر ما صرت جديراً به من الشكر وأسترد سخطك القديم »

فسألته وهي تضحك : « هل كنت فظيعاً إلى هذا الحد ؟ »

فقال : « ستعرفين مبلغ فظاعتي حين تعرفين اسمي . . مراد البارونى »

فأطرقت وقالت على مهل : « مراد . . . البارونى ؟ (وهزت رأسها) كلا . . إن ذاكرتي لا يختلج فيها شيء . . آسفة »

فقال وهو يضحك بدوره : « أما أنا فان ذكراك يقشعر لها بدني فما أستطيع أن أنسى أنك صببت على ملء قربتين من الماء في الشتاء . . سلطت على خرطوم الحديقة وأطلقت على ماءه . . أهذه ذكرى تنسى ؟ . . ألست معذوراً إذا ظللت متذكراً . . ؟ »

فدنت منه وقالت بصوت خافت كالهمس : « مراد ؟ . . صحيح ! ! »

فقال : « وكنت ظالمة لي . . »

فقالت : « كلا ... لقد تذكرت الآن ... فقد وضعت لي دودة ميتة في قفاي ... الحق أنك كنت فظيعاً »

فأشار بيده إشارة المستنكر : « لا لا لا لا … هذا كان سوء تفاهم . . أعني أني كنت فرغت من اللعب بالدودة وظننت أنك قد يسرك أن تأخذيها لتلعبي بها ، ولكني أخطأت فوضعتها لك في قفاك بدلاً من يدك … بل كان الخطأ منك لا مني ، فقد جعلت تجرين خائفة وأنا أجرى وراءك فلم يسعني إلا أن أتركها لك في حيث تيسر لي ذلك فالذنب لك يا جليلة »

فقالت جليلة وهي تضحك : « أتذكر كيف كنت تصيح بأعلى صوت كلما رأيتني ؟ وكيف كنت تجري ورائي وتدبدب برجليك كلما أدركتني فتزيدني رعباً ؟ »

فقال : « نعم أذكر ذلك … أذكر كل شيء … إنه كل ما بقي لي منك … لقد كنت أصيح وأدبدب لأخفي عنك حبي لك »

فقالت : « غريب … أكنت تحبني ؟ … لقد كان نجاحك تاماً إذن في إخفاء هذا الحب »

ونظرت إلى وجهه الذي لوحته الشمس ، وشعره الذي ظهر فيه الشيب هنا وههنا وأخذت الصورة القديمة تسترد ألوانها وتبرز معالمها شيئاً فشيئاً ثم قالت : « لقد كبرت جداً … طولاً وعرضاً … وتغيرت أيضاً … من الذي يراك الآن فيذكر بك ذلك الطفل الشقي الذي كان يسود عيشي ويرعبني كلما ظهر لي فجأة من وراء شجرة … أو من تحت الأرض فيما كان يخيل إلي ؟ … ماذا صنعت بنفسك كل هذه السنين ؟ »

فقال : « أوه ماذا يصنع الناس بنفوسهم ؟ يكبرون ويقومون على عمل يشتغلون به . . أنا أيضاً وجدت لي عملاً . . في تجارة رابحة والحمد لله . . . وأنت ؟ . »

قالت : « أوه . . كبرت مثلك … »

فقاطعها وقال : « كلا . . إنك لم تتغيري … لو كان هنا دود لما خطر لي وأنا أنظر إليك إلا أننا ما زلنا طفلين ولهممت بأن أضع لك واحدة في قفاك »

فضحكت وقالت : « لقد صرت مهذباً جداً … لم يبق شيء من ذلك الطفل اللعين … غريب … أعني أن نلتقي هنا هكذا بعد كل هذه السنين … ماذا كنت تصنع ؟ . أعني هنا »

قال : « أعني … للرياضة »

فتنبهت وقالت : « إذن لا أقل من أن أحملك معي في السيارة »

وقال وهو يركب معها مسروراً : « ما قولك ؟ نحتفل بهذا اللقاء الذي لم يكن لي ولا لك في حساب بالعشاء نتناوله في محل الحاتي . . هه ؟ »

فابتسمت لنفسها في مرآة السيارة وأصلحت شعرها الذي عبث به النسيم ثم التفتت إليه وهزت رأسها أن نعم ؛ ثم انطلقت تخطف بسيارتها الأرض

* * *

ولم يكن في جليلة خفة أو طيش ولكنها كانت فتاة وحيدة مدللة ورثت عن أبيها شدة القلب واستقلال الطبع ، وعن أمها سرعة الاجابة إلى دواعي الخير . وقد مات أبوها قبل سنوات فلم يبق لأمها سواها ولم تهمل تربيتها ولكنها كان ينقصها حزم زوجها وحكمته ، فألقت لها حبلها على غاربها وهي تحسب أنها لا تعد وما كان يصنع أبوها .

على أن الفتاة لم يكن فيها سوء ولم تثمر الحرية شراً وإنما أكدت استقلالها وأورثتها تمرداً صريحاً على كل قيـد من القيود التي يفرضها العرف حتى على الفتاة الحديثـة . وكانت أمها وبعض أهلها يشق عليهم ذلك أحياناً فتقول لهم : إني لا أفعل سوءاً ولا أسيء أدبي ولا أتوقع على أحـد ولا قيمة لخروجي وحدي أو مرافقة أصحابي وصواحبي إلى السينما أو غيرها لأني أستطيع بسهولة وبلا عناء أن أحافظ على نفسي . فكانت أمها تسكت ولا تقول شيئاً لعلمها أن الـكلام لا خير فيه

ولم تكن جليلة بارعة الحسن ولـكن صوتهـا كانت له حلاوة التغريد ، وكانت نظرتهـا الحالمة تفعـل فعلين يبدوان متناقضين — تنعش القلب وتفتر الجسم ، فاذا أدامت إليك كرة الطرف — على عادتها إذا سرها منك عمل أو قول — شاع الرضى في نفسك وفاضت بالسرور ودار رأسك وأحسست بالخدر في أعضائك . وكانت أقرب إلى القصر منها إلى الطول ، وإلى الامتلاء منها إلى النحافة والهزال ، وقد حمتها كثرة الحركة والولع بالمشي في الهواء الطلق وفطام النفس عن الآكال الدسمة الثقيلة أن تصبح كأنها أكداساً من اللحم تلح على روحها ؛ وكانت سمراء ولـكن سمرتها مشربة بحمرة لا كدرة فيها ولا غبش . وكان شعرها جعداً وأثيثاً وحفاً ، وكانت تفرقه وترسله إلى الوراء وتعقصه وتأبى أن تقصه . وكانت أنيقة بلا تكلف ، ولم تكن رقيقة الحال أو مضطرة الى حسن التدبير والاقتصاد فقد ترك لها أبوها الحازم ثروة كافية ولـكنها كانت تؤثر أن تصنع ثيابها بيديها فتجيء محبوكة التفصيل على قدها الجميل يبرز من تحتهـا نهداها الناهدان الراسخان كالرمانتين الصغيرتين ، وتكاد من فرط البراعة في انسجام الثوب على الصدر ترى الحلمتين ترفعان الثوب ، وتبصر استدارة السرة وحسن اللحوق فيما حولها . وكانت مجدولة الساقين لا عظيمة المضلة ولا مضطربتها ولا عرقوب لها . وجمال الساق في المرأة بشير بحسن القوام . وكانت تكره الأحذية العالية الـكعوب نفوراً من بروز الفخذين . على أن هذا كله ما أكثر من يشاركها فيه . ولو اقتصر الأمر على التكوين المادي لما كانت لها مزية تنفرد بها ، ولـكن أنوثتها كانت قوية الجذب شديدة الاغراء فلولا استقلالها وشخصيتها لما استطاعت أن تنجو من المعاطب

* * *

وقال مراد وهو عاكف على البيان الذي قدمه إليه الخادم : « معذرة فاني أتضور جوعا ... لم آكل في نهاري شيئاً ... ماذا تريدين ؟ . كباب ؟ . لحم رأس ؟ . حمام ؟ . إني أرى الحاتي عنـده كل ما يؤكل ... لا الـكباب وحده ... ما قولك ؟ »

فآثرت الـكباب وقالت : « إن هذا فنه الذي يمتاز به فيحسن أن أقتصر عليه »

وكانا جالسين في آخر القاعة ووجهها هي الى الباب ووجهه الى الناس . وشـغلا برهة بالأكل وذكريات الطفولة فقـــال لها وهو يضطجع : « أتذكرين يوم تحديتك أن تتسلقي النخلة ... (فهزت رأسها) لقد كنت لا تطيقين التحدي ... فهل أنت ما زلت كذلك . ؟ »

فوضـعت الشوكة على الطبق ونظرت اليه وسألته : « ماذا تعني ؟ »

قال بابتسام : « أعني أن وراءك ... بعد مائدتين

اثنتين ... رجلين أحدهما يحدق فى ظهرك ...

لا يخالجنى شك فى أنك تحسين وقع نظرته على جسمك ... انها نظرة حامية ... كاوية ... انتظرى قليلاً وسأدعو الخادم ليجيئنا بالقهوة فأديرى وجهك حين يقبل وانظرى ... »

ففعلت ثم اعتدلت فى جلستها وقد علا وجهها الاصفرار، فأكب مراد على بقية الفاكهة وتشاغل بها عما رأى فى وجهها من دلائل التغير. ولم تفت جليلة هذه الكياسة منه ووقع من نفسها اتقاؤه الفضول فتماسكت وضبطت صوتها وهى تقول : « لقد تغيرت جداً ... من كان يظن أن ذلك الطفل الخبيث الذى كان يتعقبنى وينغص حياتى يصبح هذا الرجل الوديع الظريف الكيس ؟ أتعرف من هذا يا مراد الذى يكوينى بنظراته ؟ ... إنه خطيبى زكى ... أفهمت الآن . ؟ »

فقال بهدوء وبصوت متزن النبرات : « خطيبك .. زكى ... هذه أخبار ... أظن أن من واجبى أن أقدم لك التهنئات » .

ولكنها أحست من نبرات صوته على الرغم من اتزانها أن هذا الخبر لم يسره فقالت : « لا داعى للعجب ... ثم إن الزواج مسألة عادية جداً على كل حال ... أو كما يمكن أن تقول أنت ... هو شر يصيب كل إنسان ... عاجلاً أو آجلاً ... متى يصيبك يا مراد ؟ ... » .

فقال : « أنا ؟ ... لا أدرى ... صاحبك ... أعنى خطيبك لا يزال محملقاً فى ظهرك ... فهل تستطيعين أن تنهضى وتذهبى إليه وتقولى له بكل هدوء إن لك حقاً فى أن تتناولى العشاء مع صديق قديم مثلى وضع فى طفولته دودة فى ظهرك ، وصببت عليه عشرين قربة من الماء فى الشتاء ؟ ؟ »

فقالت ببساطة : « إنى أحب زكى ... وأنت لا تعرفه ... بالطبع ليس فى كونى معك هنا ما ينبغى أن يسوءه ، ولكنه لا يعرف أنك هذا الصديق ؛ كل ما يعرفه أنه خطيبى .. وأنى — كما قال لى مراراً — طائشة ... مندفعة ... »

فقال مراد : « اشربى القهوة ... لا تفسدى على نفسك الليلة ... ستشرحين له كل شىء ... فيعود حملاً وديعاً ويعتذر اليك من هذه النظرات الحامية ... »

فشربت القهوة ولكنها كانت ساهمة ، فقد كانت تحب « زكى » هذا وكانت تكره الاضطرار الى الشرح وتستثقل أن تحتاج حتى الى ما يشبه الاعتذار .

وقال مراد : « لقد قام الرجلان ... خطيبك وصاحبه ... » .

فقالت : « يحسن أن نقوم إذن ... فسيودع صاحبه ولا شك ويقف فى انتظارى ... أشكرك يا مراد ... نبهنى الى أنه خرج ... فلألحق به » .

وخرجا . وودعها مراد بعد أن عرفت منه عنوانه وعرف منها عنوانها وألح عليها أن تتصل به إذا جد أمر من جراء لقائهما الليلة .

***

وقالت جليلة لزكى : « معى سيارتى فلا حاجة الى تاكس » .

فدخل فيها واضطجع ثم قال : « من هذا الرجل الذى كان معك ؟ » .

فقصت عليه ما وقع لها عند المطار ؛ فقاطعها وقال : كيف تكلمين رجلا غريباً ؟ ... إن هذا كثير ... » .

قالت : « ولكنه ليس غريباً ... لقد نشأنا معاً ... في حي واحد ... » .

فنفخ وقال : « ولكنك لم تكوني تعرفين أنه هو صديق طفولتك ... » .

فقالت بلهجة المستغرب : « هل كنت تريد أن أتقبل معونته ولا أشكره على الأقل ؟ ... » .

فترك هذا وقال : « ولماذا تخرجين الى هذا المكان وحدك ؟ »

قالت : لأنك مشغول عني بأعمالك الكثيرة التي لا تدع وقتاً لمرافقتي ... ومع ذلك أي بأس هناك ؟ » .

قال : « بأس ... بأس ... هذا الذي حدث لك من غوص العجلة أليس بأساً ؟ » .

قالت : « لا تكن متعنتاً ... إن السيارات يمكن أن يحصل لها أي شيء في أي مكان في الدنيا » .

فترك هذا أيضاً وقال : « ولكن تأتين معه الى الحاتي ... ماذا يقول الناس ؟ » .

فقالت : « إذا كان الحاتي مكاناً لا يليق أن يدخله الشريف ... » .

فقاطعها بسرعة وقال : « لست أقول هذا ... الأمر على العكس ... » .

قالت : « إذن انتهينا ... » .

فسكت لما رأى حجة له تنهض . وساءه ذلك فقد كان شديد الاعتداد بنفسه ، وكان عظيم الطموح واسع الأمل في المنازل الملحوظة فلم يسره أن الفتاة التي سيتزوجها تقرع حجته بأقوى منها ، وأحس أن في هذا تنقصاً له وغضاً من مقامه وسقوطاً لهيبته ولكن الكلام خانه فآثر السكوت على مضض .

وكان زكي — أو إذا أردت اسمه كله زكي الدين حمد — من أصل تركي أو شركسي — سيان — وكان يطمع أن يبلغ عاله الموروث حيث لم يستطع أن يبلغ بالكفاية الشخصية ، وكان أمله الذي لا ينفك يحلم به في اليقظة والمنام أن يصبح يوماً من أعضاء البرلمان ، ومن أجل هذا كان يتقرب الى الزعماء السياسيين بوسائل شتى ، وكان يعنيه جداً أن يحسن رأيهم فيه وظنهم به ، وكان يحرص على المركز المأمول ويحيط نفسه سلفاً بكل مظاهر الأبهة والسمت والوقار وينظر الى الأمر كله كأنه واقع ، وينتظر من الناس أن يعدوه كذلك ، بل أن يبالغوا ويروحوا يعدون بصرهم الى المستقبل وأن يخالوه كما يتخيل نفسه فيه وزيراً أو رئيس وزارة .

وقال لجليلة وهو يودعها على باب بيتها : « أرجو يا جليلة ألا تعرضيني لكلام الناس ، واذكري أن لي مركزاً يجب أن أحافظ عليه » .

فسحبت يدها من يده وقد آلمها كلامه وأحست أن سهماً وقع في قلبها . وكانت حساسة وذكية . ولم يكن يخفى عليها أن ليس له مركز سوى ما يفيده الغنى ، ولم تكن هي تحتاج منه الى مال فإن مالها كثير . وكانت تدرك أن ما يسميه « مركزه » جانب ضعف فيه ولكنها تغض عن ذلك لحبها له ؛ غير أنها لم تكن تتوقع أن يتهمها بأنها تسيء الى هذا المركز — وإن كان موهوماً — فضلا عما تنطوي عليه عبارته من التعريض بها بعد أن شرحت له الأمر كله ولم تخف عنه شيئاً . وماذا تخفي وليس في الأمر ما يستدعي الكتمان ؟

وقالت له وهي تهم بالدخول : « أيامك سعيدة »

فسألها : « متى نلتقي غداً ... »

فأطرقت شيئاً ثم رفعت رأسها وألقت إليه

ابتسامة ساخرة وقالت : « غداً ؟ لا ... إنى على موعد مع مراد ... » .

ودخلت . وتركته واقفاً وفمه مفتوح .

ولم يكن ثم موعد ولا شبهه ؛ وإنما قالت ما قالت مدفوعة اليه بضجرها وألمها .

* * *

ولم تحاول أن تلتقى بمراد فى اليوم التالى فقد كانت تدرك أن هذا لا يكون منها إلا خرقاً وحماقة

فلزمت بيتها الى المساء ثم خرجت فى سيارتها على عادتها وجالت بها جولة قصيرة ثم ردت بعض الزيارات وعادت فلزمت غرفتها ، وكان الألم لايزال يحز فى نفسها فساء نومها واضطرب . وذهب يوم وجاء يوم ولكنها أحست ثقلا فى جسمها وفتوراً فبقيت فى فراشها وأوصت أمها أن تمنع أن يزعجها أحد — حتى ولا زكى — فشعرت الأم أن فى الأمر شيئا ، ولكنها حدثت نفسها أنه خلاف لا يلبث أن يزول . وجاء زكى يسأل عن خطيبته فعرفت الأم أنه لم يلقهامنذ يومين ، فأظهرت تعجبها وزلت فقالت إنها كانت تحسب أنها لا تخرج إلا للقائه ، وزل زكى أيضاً فقال لها إن جايلة خفيفة وإن خفتها تسىء الى مركزه ، وإنه كلمها فى ذلك فغضبت ولجت فيما نهاها عنه ، فهو يرجوها أن تكبحها قليلاً فما يليق أن تترك هكذا حبلها على غاربها . وعرفت جايلة هذا الذى دار بين أمها وبين خطيبها فدهشت له ولكنها لم تغضب ولم تثر بل كان من الغريب أنها أحست كأنما وضع لها فى مكان القلب قطعة من الثلج .

وجاء العصر فركبت سيارتها وخرجت بها الى مصر الجديدة . وكان كل همها أن تكون هى وحدها وأن تدور دورة فى الهواء الطلق وتمشى قليلاً عسى أن ينفعها ذلك فيمفيها من الشعور بالانقباض والفتور . وإنها لفى بعض الطريق إذا بها ترى مراداً يمشى بسرعة كأنما يريد أن يدرك موعداً ، فوقفت وأشارت إليه وقد أحست أن جسمها قد صار أخف مما كان . فجاءها يعدو فسألته : الى أين ؟ ... »

فلم يجب عن هذا السؤال ولم يلق اليها تحية بل ركب وهو يقول : « أرانا نلتقى فى هذه الأيام ؟ حسن هذا ... أليس كذلك ؟ » .

فأعداها ما فى وجهه من البشر وقالت ضاحكة : « غريب هذا ... تمضى سنوات لا نلتقى فيها مرة واحدة وفى أربعة أيام نلتقى مرتين » ،

فقال : « لا تغالطى يافتاتى ... ليست هذه مصادفة » .

فنظرت اليه مستغربة وسألته : « ليست مصادفة . . ؟ »

فقال وعلى فمه ابتسامته الوضيئة التى لا تفارقه « كلا ... ليست مصادفة ... إنها إرادتى سلطتها عليك فجذبتك الى حيث أنا ... نعم »

فعاد إليها إشراق وجهها واطمأنت وقالت : « أوه ... آه ... إرادتك ؟ . طبعاً »

فقال : « لا تمزحى ... إنى أتكلم جاداً »

فرمت اليه نظرة سريعة فألفته لا يزال يبتسم فحولت وجهها الى الطريق وقالت : « هذا بديع .. تكلم ... إن أذنى لك »

قال : « نعم ... إرادتى ... لم أزل منذ عشر سنين أربى هذه الارادة فهل تستغربين أنها بلغت من القوة هذا الشأو ؟ . بالطبع لا ... وأنت أول

من ينبغى أن يكون من تلاميذى المؤمنين بى ... من حوارى . . . هه . . . وسأفتتح بك العهد الجديد ... »

وبلغا آخر الطريق الى المطار من ورائه فجلسا على سلم السيارة وأخرج مراد سيجارة وذهب يدخن فى صمت ، فلما طال ذلك التفتت اليه وقالت : « إنك لا تسألنى ما ذا حدث »

فلم يحول وجهه إليها وأدرك من كلامها أن شيئاً لا بد أن يكون قد حدث ، ولم يشأ أن يتطفل عليها بالسؤال فاكتفى بأن يقول : « إن أذنى لك ... أعرناك السمع »

فقالت : « إنك قليل الفضول »

قال : « لأنى مشغول عنه بما فى نفسى . . . الدكان غاصة ... لا تحتمل زيادة »

قالت : « لغة التاجر ... اسمع ... غضب زكى ... أوه ... غضب جداً ... لم يقل شيئاً كثيراً ... كل ما قاله أنى خفيفة طياشة وأنى أسيء سلوكى الى مركزه »

فانتفض مراد واقفاً وقد تجهم وجهه ورمى السيجارة ثم التفت اليها وقال بلهجة صارمة :

« من يكون زكى هذا ... »

وكبح نفسه عن الاسترسال ورد لسانه بجهد ، وضبط أعصابه وعاد الى مكانه من السلم والتفت اليها وقال وقد وسعه أن يبتسم مرة أخرى : « معذرة ليس لى حق ... قولى إنك صفحت عنى »

فسرها منه أنه غضب لها وثارت نفسه بالسخط على خطيبها من أجلها فقالت له برقة « أشكرك ... إننا صديقان قديمان ... »

فقال لها وهو ينهض مرة أخرى : « قومى نتمشى ... ودعى السيارة فان يخطفها أحد »

وقطعا مسافة وهما صامتان ثم وقف والتفت اليها وقال : « اسمعى يا جايلة . . . إنى أعتمد على ما تخولنى صداقتى القديمة من الحق فى الصراحة ؛ عشرون قربة من الماء يحمل لى هذا الحق ... أريد أن أقول إنى تحاشيت فى مقابلتنا الأولى أن أكاشفك بما أضمر لك من الحب كل هذه السنين الطويلة . . لأنك قلت عرضاً إنك مخطوبة . . . ولكن وجه المسألة تغير اليوم بعد أن سمعت منك ما قال هذا البغل »

فقاطعته ضاحكة : « اذكر أنه خطيبى ... لا يزال خطيبى ... وأنى قلت لك إنى أحبه »

فقال : « لم يعد هذا يعنينى ... لست أحاول أن أصرفك عنه ... كلا ... ولكنه لم يبق لى بد من أن أقول لك إنى أحبك ، وأنى أحبك مذ كنت طفلة وكنت أعابثك وأكايدك وأصرخ فى وجهك ... وكان هذا مظهر حبى الصبيانى . . . أما الآن فان مظهره أنى مستعد أن أذهب الى خطيبك هذا وأخنقه بيدى هاتين . . »

فقالت ضاحكة : « لقد توهمت لحظة أنك صرت أرق »

فقال : « كلا . . أنا كما كنت . . واسمعى ولا تقاطعى وإلا بحثت عن دودة ووضعتها لك فى قفاك ... إذا حدث يوماً أن صار الدكان للايجار فأخبرينى ... »

فقالت : « لغة التاجر أيضاً . . . ولكنى سأستعيرها منك ... ثق أنك مفضل عندى على كل مستأجر لهذا الدكان إذا خلا يوماً من الأيام . لم يكن يخطر لى أن هذا ما تنطوى عليه لى ... ومن

التى تتصور أن وضع الديدان فى قفاها يكون علامة حب ؟ ولكنك كنت دائماً غريباً . . . على كل حال ... المسألة المهمة أن الدكان مرحوم ... ليس خالياً ... خرجت أستبضع فامتلأ ... صحيح أنه امتلأ بأشياء لاقيمة لها ... ولكنى لم أكن أعرف أن ما غص به عديم القيمة ... المهم أنه ممتلىء ... وأظنك تدرك أنه مادام مملوءاً فلا مكان هناك لجديد ... يجب الصبر حتى أخليه مما فيه ... هذا يحتاج الى وقت ... ومن يدرى ؟ ربما كان الاخلاء أصعب من الملء ... ولكنك تفهم وتعذر . . .

فقال ببساطة وهدوء : « لابأس .. لا بأس .. إن دكانى أيضاً مرحوم ... ولكنه مرحوم بالنفيس الغالى ... ولست أريد أن أخليه ... لا أستطيع أن أخليه حتى لو أردت ... وهيهات أن أريد أو أستطيع ... إنه مكتظ منذ خمس عشرة سنة . وسيظل مكتظا طول العمر ... وقد عرفت أن مفتاحه معك ... فى يدك ... فادخلى حينما تشائين وعسى أن تشائى ... عدينى أن تحتلى مكانك من الدكان بعد أن تفرغى من أمر دكانك ... وفى أثناء ذلك نبقى كما كنا دائما ... صديقين حميمين »

* * *

ولم يسع جليلة إلا أن تفكر فى أمر الرجلين : مراد الرجل الذى تعرفه منذ الطفولة والذى كان يسود عيشها بعبثه لأن هذا كان تعبيره الخاص عن حبه لها ، وقد ظل بعد ذلك يحبها ، ولكنه أحجم عن طلب يدها لرقة حاله بالقياس اليها ، وقد صار تاجراً ، ولكنه لم يثر لأنه لا يربح إلا الكفاية ، ومن هنا إحجامه الى الآن عن خطوبتها كما حدثها ؛ وقد زاد على ذلك أنه كان لا يتصور أن ترضى به فتاة مثلها فكتم حبه وطواه فى صدره ، وسأل الله المعونة على احتمال اليأس الخاسر ؛ وهوظريف كيس لبق دائم البشر واسع الادراك رحيب الأفق حلو الفكاهة . وزكى الفنى الذى لا زال مهموماً بمركزه المتخيل ، والذى لا يتقى فى سبيل الحرص عليه أن يجرح قلب فتاة ، ويتهمها بالخفة والطيش فى سلوكها ، وبأن سيرتها توشك أن تسىء الى مركزه الموهوم هذا . وقد أحبته ... هذا صحيح . ولكن عينها فتحت فهى تراه الآن على حقيقته ، وليس يسعها إلا أن تفكر فى حياتها معه كيف تكون إذا كان كل ما يباليه فى الدنيا هو هذا المركز . . ولكنها خطيبته وقد قبلت أن تكون زوجته ... فما العمل الآن ؟

وسألت نفسها ... أى الرجلين أحب اليها ؟ وحيرها الجواب ... فهل هذا الذى تشعر به لمراد حب ؟ . إن يكن هذا فهو هادىء جدا ... أما زكى فان الدكان كما قالت لمراد مرحومة ... صحيح أنها مرحومة بما لا قيمة له — كما ظهر الآن — ولكنها مرحومة ... فهل تخلو يوماً ؟ . هذه هى المسألة ... وإلى أن تخلو لا سبيل الى شىء ...

ولو أن زكى ذهب إليها فى ذلك الوقت ولاطفها وتألفها وضاحكها ومازحها واعتذر إليها ، ولو كانت هى فى رأيه المخطئة ، لعادت المياه إلى مجاريها كما يقولون ولارتفعت قيمة ما فى الدكان وارتدت إليه نفاسته ، ولكنه أراد أن يلقنها درساً فأعرض أياماً وجفاها وانقطع عن زيارتها ، ولم يكفه ذلك بل أرسل إليها خادمة تبلغها تحياته وتسألها باسمه عن صحتها . وأوصاها أن تخلق مناسبة لتقول لها إن سيدها يكثر فى هذه الأيام من زيارة بيت خالته

— وكانت لهـا بنت فى مثل سن جليلة — ليثير غيرتها وإشـفاقها من أن يطير العصفور من يدها فأفلح ولـكن فى استثارة نقمتها عليه ، فقالت لنفسها إن رجلاً يحبها ويعرض بها ويرميها بأن سلوكها من شأنه أن يسىء إلى سمعتها وأن يضر بمركزه ، ثم لا يجعل هذا بينه وبينها بل يفضى به إلى أمها ، ثم لا يكفيه هذا بل يجفوها ، ثم يترقى فى تعمد الاساءة إليها فيرسل إليها خادمة تبلغها أنه انصرف عنها إلى سواها — مثل هذا الرجل خير له ولها أن ينبت ما بينهما . .

* * *

على أنها لم تتعجل وإن كان عزمها قد صح على الفراق فقد كانت شـديدة الثقة بنفسها والاعتداد باستقلالها وإرادتها الحرة ، فلم تر ما يدعو إلى العجلة بعد أن انتوت أن تفصم العروة واسـتوى عندها أن يكون ذلك يوم انتهت إلى هذا العزم وأن يكون بعده بأيام أو أسابيع ، فقد كانت واثقة أنه ما من شىء يستطيع أن يحولهـا عنه . وصار عجبها أن الدكان خلا بسرعة مما كان يغص به . ولم تـكن تلق فى تلك الأيام مرادا لأنها أرادت أن تختبر نفسها وتجسها لتعرف ما تنطوى عليه له ، فأدهشها أنها تحس وحشة وأنها تشتهى أن تكون معه وأن تستعيد ما تشعر به فى مجلسه من سـكينة النفس واطمئنان القلب والرضى الهادىء . وزاد شوقها إليه أنها كتمت الامر كله عن أمها فلم يكن هناك من تبثه ما فى نفسها ، ولو كان مراد إلى جانبها لكان خليقاً أن يفهم ويعذر ويعطف وأن يسرى عنها بفكاهته التى لا تخونه ، وأن يعديها بقوته التى تجعله لا ينسى أن يضحك وهو يفجع فى أمله الذى عاش به سنين وسنين . . وتعجبت لسرعة استيلاء مراد على هواها فما لقيته إلا مرتين بعد طول الانقطاع والغيبة . فهل هذا هو الحب الذى يقال عنـه إنه يكون من أول نظرة ؟ . . أم تراها كانت تحبه مذ عرفته وهى لا تدرى ، وكان حبها له راقدا كامناً ينتظر فرصة للظهور ! لا شك أنها كانت تحبه . كذلك قالت لنفسها وهى راقدة على سريرها بعد الغداء . نعم كان يقسو عليها ويركبها بالمزاح المتعب ، وكان يختبىء لهـا وراء الأشجار ثم يفاجئها بصرخة تروعها فيضحك ويقهقه . وكان يجرى وراءها حتى تنقطع أنفاسها وتقع من الأعياء . . فيحملها ولكنه لا يرحمها ولا يترفق بها بل يروح يقرصها ويعضها فتصرخ وتصيح وهو يضحك ولا يبالى . . . ولم تستطع أن تنتقم منه إلا مرة واحدة حين أرسلت عليه خرطوم الماء فأغرقته فجعل ينتفض من البرد ، ولـكنه كان يضحك مع ذلك ولم يسخط عليها ولم ينطق بكلمة تشى بالألم أو النقمة أو الغضب ، بل احتمل ذلك . ولما رق له قلبها وأقبلت عليه بالاعتذار إليه وطلب الصفح منه لم ينس دعابته وعبثه ، ونبحها كما يفعل الـكلب « وَوْ . . وَوْ » ففزعت فما كانت تتوقع شيئاً من ذلك ، ومضت عنـه مغيظة محنقة معتقدة أنه شر صبى فى الحارة ؛ وكان هو يقهقه وينطوى من شدة الضحك غير عابىء بالماء والبرد ، فيا لله ما أقواه . . ومع ذلك كانت لا تلعب إلا معه ، وإذا أقبل عليها غـيره من الصبية نفرت . . . نعم لا شك أنها كانت تؤثره . . . ولـماذا لا تقول إنها كانت تحبـه ؟ صحيح أنها لم تكن تعرف ما الحب ولـكنها تعرف الآن فقد صارت خبيرة مجربة فلماذا لا تسمى الشىء باسمه الصحيح ؟

وارتدت من الماضى إلى الحاضر وذكرت كيف غاصت عجلتها فى الرمل ووقفت حائرة وإذا به يظهر كأنما شق الأرض وخرج منها — كما كان يفعل وهو صبى — وينطرح على الأرض بلا كلام أو سؤال ولا يبالى ما يصيب ثيابه ، ويجرف الرمل بيديه الكبيرتين ويحمل الحجارة ؟ يفعل كل ذلك ولا يرفع عينيه إلى .. ثم يعرفنى فيتلطف فى تذكيرى بنفسه . ويتظاهر بنسيان اسمى وهو منقوش محفور فى قلبه .. وتنازعه نفسه أن يفضى إلى بحبه فيشير إليه من بعيد فى معرض الكلام على ذكريات الحداثة . ويعرف أنى مخطوبة فيفقد كل أمل ولكنه يتجلد ويتكلف الابتسام ويعنى فى مؤانستى بحديثه كأنما لم يهد كيانه ولم يتقوض بنيانه . وهل أنسى كيف ثار وانتفض حين رويت له ما أهاننى به زكى .؟ لقد كانت ونبته تلك حسبى دليلا على عمق ما يجن لى من الحب . ومع ذلك أبت له الكياسة والأدب إلا أن يكبح نفسه ويردها عن النيل من زكى مخافة أن أكره ذلك منه ..

وظلت تناجى نفسها على هذا النحو ولا تكتحل عينها بغمض حتى كان العصر فقامت ولبست ثياب الخروج واستقلت سيارتها الصغيرة إلى دكان مراد فأقبل عليها يرحب بها فقالت له :

« أنت أولى من الغريب »

فابتسم وقال : « آه .. أهو ذاك ؟ »

قالت : « نعم . أريد شيئاً من الحرير .. قطعاً كثيرة . ألوانها شتى . الوقت ضيق . »

فقال : « الوقت ! لست فاهما شيئاً . »

قالت : « ألا تعرف أن العروس تحتاج إلى ثياب كثيرة ؟ »

فامتقع لونه ولكنه تجلد وقال : « متى إن شاء الله ؟ لست أطمع أن أدعى ولكنى أريد أن أحتفل بليلة الجلوة وبسرورك فيها . وحدى »

فسألته بخبث : « وحدك ؟ »

فقال : « نعم . أن يكون مني سوى خواطرى »

وأدار وجهه إلى الباب ليخنق زفرة يعلو بها صدره ثم التفت إليها وقال : « متى يكون هذا ؟ »

فرفعت إليه وجهاً مشرقاً ونظرت إليه نظرتها الحالمة وقالت : « متى تريد أن يكون ؟ »

فقطب وقال : « إيه .؟ »

فأعادت سؤالها : « متى تريد أن يكون ؟ »

فحدق فى وجهها — فى عينيها — ثم صاح وقد فطن إلى ما تعنى وانحنى عليها فرفعها بيديه عن الكرسى غير عابىء بالعمال والزبائن وأهوى على فمها باللثمات ثم ردها إلى الكرسى وصاح بأحد رجاله :

« إذهب . إذهب . حالا . حالاً »

فوقف الرجل كالأبله لا يفهم ، ولا يدرى أين يريد منه أن يذهب فصاح به :

« هات المأذون .. ألا تعرف المأذون يا أبله ؟ . إذهب .. حالاً .. »

فوقفت جايلة وأقبلت عليه تسأله : « ماذا تعنى ؟ .. ماذا تريد أن تصنع ؟ »

فقال : « ماذا أعنى ؟ .. يا له من سؤال ! .. نعقد العقد .. هنا .. حالاً .. فى الدكان . هذا ما أعنى .. رجالى وزبائنى شهودى .. شهود سعادتى لقد كان التجار فى الزمن السالف يجيئون برجال يقفون على أبواب الدكاكين ويدعون المارة أن يدخلوا ويرينون لهم البضاعة .. وقد انقضى ذلك الزمن وحلت الاعلانات فى الصحف محل هؤلاء

المنادين ولكنى اليوم سأقف بالباب وأدعو الناس .. كل الناس أن يدخلوا لا ليشتروا بل ليشاركونى فى سعادتى .. لماذا لم يجىء المأذون .. إذهب أنت وراءه واستعجله »

وفرحت جليلة بهذا الجنون وخجلت أيضاً — أفرحها أن عقله استطير من فرط الجذل ، وأخجلها أن كل هؤلاء الناس من العمال والزبائن يرونها ، وأن عيونهم جميعاً عليها ، وأنهم يفحصونها ليعرفوا سر هذا السحر الذى ذهب بلب الرجل الذى ألفوا منه الرزانة والسكينة والظرف والعقل .. ولم تكن تقدر أن يفعل ذلك وأرادت أن تستهوله فأبى ، فاقترحت أن يذهبا بالمأذون إلى البيت فأبى أيضاً ، وقال إن ناساً فى هذا الزمان يتزوجون فى الطيارة ، فماذا يمنع أن نتزوج فى الدكان ، فقالت إنه فرق ساعة ، والمسافة إلى البيت لا تستغرق زمناً ، فأبى أيضاً ، وقال إنه يخاف عليها أن تطير وتتسرب فى الهواء ... كلا ... لا بد أن يكون العقد هنا

وراقها هذا الجنون وأرهف خيالها فرضيت وتزوجا فى دكان

وقالت له وهما خارجان : « نسيت أن أقول لك إنى وجدت أن الدكان لم يكن خالياً قط ... كان ما فيه مخزوناً من أيام الصبى ، فلما أدرت عينى فيه عرفت ولهذا جئت »

فقبلها على باب الدكان

ولم يستح الرجل !

ابراهيم عبد القادر المازنى

بنـــك مصر

يساعدكم على الادخار من أقرب وأضمن الوجوه

اتصلوا بقسم بيع الأوراق المالية بالتقسيط

واستفيدوا من التخفيض المحسوس والضمان الموفور

خابروا قسم التقسيط رأساً بمركز البنك الرئيسى

بالقاهرة . وفروعه بالأقاليم

ليس للبنك وكلاء متجولون